ثقافة الطفل العربى والعولمة

ثقافة الطفل العربى والعولمة

أ.د. إعتماد خلف معبد

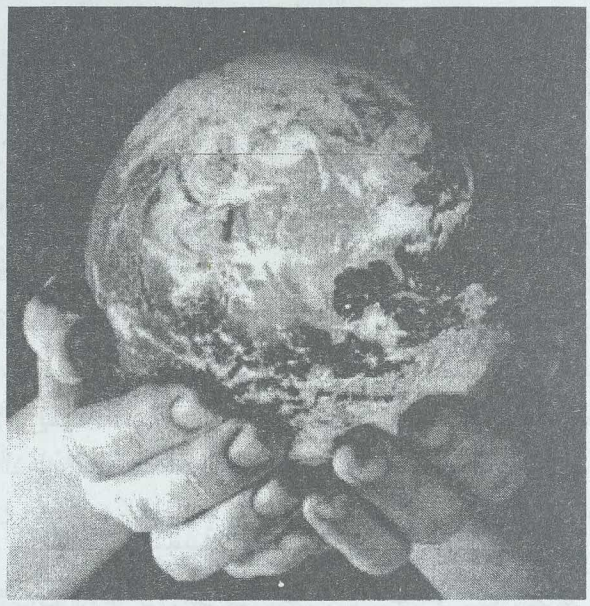

إن المجتمعات العربية أدركت منذ أكثر من ١٤ قرنًا من الزمان أهمية تثقيف الطفل وتنشئته، باعتباره زاد الأمة، وبانى مستقبلها. وتمثل ثقافة الطفل وعناصرها المختلفة حصيلة من التفاعل بين الماضى والحاضر والمستقبل، حيث تتشكل وتتكون شخصية الطفل المستمدة من دروس الماضى، أو التراث الثقافى للأمة العربية، مزودة إياه بما يجعل الطفل قادرًا على مواجهة تحديات الواقع المعاصر، واستشرافًا لتطلعات المستقبل. وربما كانت أنسب الكلمات التى صاغها عمر بن الخطاب رضى الله عنه تعبر عن أهمية التنشئة الثقافية للطفل حين قال "ربوا أولادكم لجيل غير جيلكم، فقد خلقوا فى زمان غير زمانكم".

إن تعاظم دور وسائل الاتصال الحديثة، وانتشار الخدمات الثقافية على مستوى العالم، بصورة أصبحت فيها صناعة المنتج الثقافى للطفل بدءًا من الكتاب، ومرورًا بالمجلة، وأفلام السينما، والفيديو، والتليفزيون، إلى الإنترنت وخدماته المتعددة التى أصبحت فى متناول الطفل فى القرن الحادى والعشرون، أدى تنامى الجهود البحثية على الساحة العربية خاصة منذ السبعينيات، حيث بدأ الاتجاه نحو دراسة ثقافة الطفل على أسس علمية(١).

إلا أنه رغم الجهود البحثية التى بذلت، والمؤتمرات، والندوات، والحلقات الدراسية التى عقدت خلال ما يقرب من ثلاثين عامًا مضت، فإن مستوى الخدمات الثقافية المقدمة للطفل العربى مازالت دون مستوى الطموح العربى والإسلامى المأمول؛ مما يلقى بأعباء المسئولية على القائمين على ثقافة الطفل العربى.

ويرجع كثير من الباحثين والدارسين المشكلات التى تواجه ثقافة الطفل فى العالم العربى إلى عدة منطلقات، أهمها : الأمية، والتجزئة، والفقر، وهى منطلقات تعوق تطور وسائل الإعلام وثقافة الطفل (من صحافة، وإذاعة، وتليفزيون، وسينما، وفيديو، ومكتبات، ومتاحف... إلخ) باعتبار أن تلك الوسائل الإعلامية والثقافية أدوات مجتمعية تشارك ضمن وسائط أخرى فى تنشئة الطفل اجتماعيًا، وسياسيًا، ووجدانيًا(٢).

ويحدد بعض الباحثين العقبات التى تواجه ثقافة الطفل فى الدول العربية فى أربع مشكلات رئيسة، هى :

أولاً : مشكلة المنافسة غير العادلة بين وسائط تثقيف الطفل عالميًا، وتلك المُقدمة باللغة العربية، وطبقًا لعدة دراسات أجراها "اليونسكو" جاء فيها أن غالبية الدول العربية تستورد أكثر من نصف وسائط الثقافة الأساسية للطفل، وأن ٧٥% من تلك الوسائط يأتى من الولايات المتحدة الأمريكية. هذا بالإضافة إلى أن تلك الوسائط وما يتبعها من برامج تتدفق فى اتجاه واحد من الدول المتقدمة إلى الدول العربية(٣).

ثانيًا : مشكلة تحديد الوظائف الأساسية أو المهام التى يجب على وسائط التثقيف للطفل القيام بها فى المجتمع الغربى، حيث تتميز وسائل الاتصال الثقافى بكونها مشاركة فى عملية التنشئة الاجتماعية للطفل، مما جعل من الضرورى تحديد المهام التى من أجلها يتم إنتاج صحف للطفل، أو برامج مسموعة، أو مرئية... إلخ، وأدت ثورة الاتصالات الحديثة إلى درجة عالية من قابلية الراشد – قبل الطفل – للتأثر بتجارب الآخرين، وأنماط سلوكهم المنقولة له عبر وسائط الثقافة المختلفة العالية التقنية، والتى بدورها أدت إلى استحالة التحكم فيما يتعرض له الطفل من مواد ثقافية مختلفة.

ومن هنا فإنه يجب لمواجهة هذه المشكلة تحديد القدر المتاح من مصادر دخل أى دولة الذى سوف يخصص فى الاستثمار فى مجال ثقافة الطفل، ولأى هدف او مهمة؟ هل لنقل معلومات للطفل أم للتسلية والترفيه؟ أم أن المهمة الأساسية تكون لنقل أنماط ثقافية معينة بهدف تغيير سلوك الطفل، أو تعديله، أو تحصينه ضد تيارات ما يعرف بالغزو الثقافى. مع ترك مهمة نقل المعلومات للمؤسسات التعليمية التقليدية؟

ثالثًا : مشكلة تحديد دور كل من القطاع الحكومى والقطاع الخاص فى مجال تثقيف الطفل العربى؛ حيث أصبح التوجه العالمى حاليًا نحو ما يسمى باقتصاد السوق، بما يحمله من مفاهيم حرية النشر والثقافة؛ أى ترك الأنشطة الإعلامية والثقافية لمنطق العرض والطلب، فهل تعد ثقافة الطفل سلعة؟ مثلها مثل السلع الأخرى باعتبارها منتجًا تجاريًا، والطفل مستهلك لذلك المنتج مثل استهلاكه لمعظم المنتجات الأخرى كالشيكولاتة، واللبان، والحلوى، خاصة وأن تلك المشكلة تكمن أبعادها فى كون وسائط تثقيف الطفل تعد أنشطة معرفية، واجتماعية، ووجدانية لها صلة وثيقة بتنشئته، وإكسابه شخصية ذات أبعاد نفسية واجتماعية سليمة، تتفق مع أهداف المجتمع العربى.

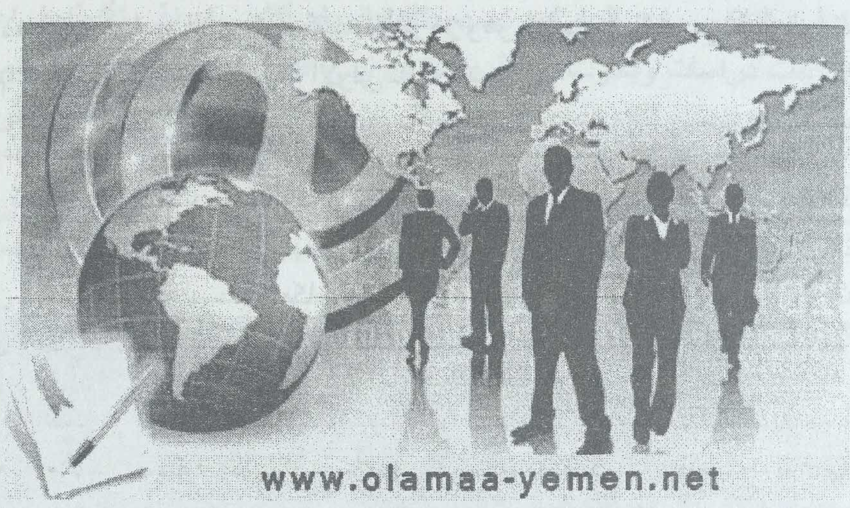

والتساؤل الذى يطرح نفسه فى هذا المجال هو : هل تترك الوسائط الثقافية المتعددة، والأنشطة الإعلامية الموجهة للطفل فى العالم العربى لمنطق العرض والطلب؟ أم أن الأمر يحتاج لضوابط يجب الإتفاق عليها من قبل القائمين على إعلام الطفل وتثقيفه؟ خاصة وأن دولة كفرنسا مثلاً رفضت ذلك المنطق، وخاضت – بحكم تمسكها بأن الثقافة ليست مجرد منتج تجارى – معركة عنيفة ضد ما يسمى بالعولمة وتنميط الثقافة، حيث أصبحت العولمة متهمة بكل ما يقلق البشر ويهددهم؛ خاصة وأننا لانزال فى بداية هذه الظاهرة. حيث لوحظ تزايد عدد الذين يرون أن ثقافتهم أصبحت هشة، وأن لغتهم أصبحت أقل استخدامًا، وأن تاريخهم يدخل فى طى النسيان، وأن مبدعيهم يخضعون للإحباط(٤).

رابعًا : مشكلة الاتفاق على مستوى المضمون المقدم للطفل من خلال وسائل الإعلام والثقافة المختلفة، ويرتبط بذلك ضرورة الأخذ فى الاعتبار التكوين الثقافى والقيمى للطفل العربى، وتحديد ما الأفكار والعقائد والقوانين وأساليب السلوك ونماذج الأبطال... إلخ التى يراد بثها فى عقول أطفال اليوم؛ شباب الغد. ومن هنا أصبح البديل لتعبير "الاستثناء الثقافى" هو "التنوع الثقافى" من أجل تفادى تنميط العالم، والحفاظ على تنوع الثقافات، فلا يمكن فى الوقت الحاضر أن يعيش الطفل فى حماية حدود مجتمعه تحت ما يسمى بالاستثناء الثقافى فقط، بل يجب أن يتسلح القائمون بالاتصال الثقافى بالطفل بالقدرة التنافسية التى يسبقها بالضرورة إنتاج أعمال إبداعية للطفل تسبقها صناعة قوية وشبكات توزيع فعالة؛ ولذلك أصبح من الضرورى توافر أمرين : وضع حواجز من أجل التقاط الأنفاس مع الاهتمام بالتنظيم لعناصر ثقافة الطفل العربى، ثم تحين الفرصة المناسبة، والتحول إلى قدرة تنافسية مبدعة فى كافة مجالات ثقافة الطفل(٥).

ويرتبط بكل ذلك ضرورة التكامل والتفاعل بين وسائط تثقيف الطفل فى المجتمع العربى، حيث تتفاعل ثقافة الطفل وتتكامل مع ثقافة الكبار، والدعوة الموجودة على الساحة العربية حاليًا هى التوجه إلى ما يسمى : "ثقافة الأسرة"، وما يرتبط بها من وسائط مثل :

فيلم الأسرة، وبرامج الأسرة، وكتب الأسرة، وهو توجه يتماشى مع قيم المجتمع العربى المسلم، حيث تشكل الأسرة اللبنة الأولى لبناء المجتمع.

ومن الجدير بالذكر أن معظم البحوث والدراسات التى أجريت فى مجال ثقافة الطفل كانت تعالج المشكلات باعتبار أن ثقافة الصغار شأن خاص منفصل عن ثقافة الكبار وإعلامهم. إلا أننا ومنذ التسعينيات بدأت البحوث والدراسات فى ثقافة الطفل تلفت النظر إلى أن ثقافة الصغار ليست انعكاسًا فقط لثقافة الكبار، بل هى كائن حى داخل ثقافة الكبار يتفاعل وينمو ويزدهر بمقدار ازدهار ونمو ثقافة الكبار(٦).

وقد أصدر "اليونسكو" و"اليونيسيف" منذ عام ١٩٨٠ عدة كتيبات تحت شعار "الكتاب للجميع"، و"نحو مجتمع قارئ"، مما جعل من قضية النهوض بالقراءة الاختيارية للطفل والشاب من الأهمية بمكان. كما أن هناك حملات قصيرة الأجل، وأخرى طويلة الأجل قامت بها كل من : المملكة العربية السعودية، وماليزيا، ونيجيريا، وباكستان، وكينيا، وكولومبيا. ووفقًا لتخطيط هذه الحملات – حسب ظروف كل أمة – يتم تحديد دور الحكومة، ودور صناعة النشر، ودور المكتبات العامة ومحال بيع الكتب، بالإضافة إلى إشراك المعلمين، والمدارس، والأسرة، والمجتمع ككل، وأجهزة الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، بالإضافة إلى الاستعانة ببعض الهيئات والمؤسسات ورجال الأعمال فى تنمية وتمويل هذه الحملات(٧).

وترى آن بلويسكى(٨) أن الدول النامية تحتاج إلى العناية الشديدة فى اختيار المواد المستوردة للطفل، وأنه يجب على القائمين بالاتصال الثقافى بالطفل فى تلك الدول مواجهة مسئولياتهم الاجتماعية من أجل اكتشاف الجديد والأصيل فى تراثهم الثقافى، وتقديمه للطفل. كما أنه من الممكن فى هذا المجال إعادة تبسيط أدب الكبار فى تلك الدول وتقديمه للصغار بعد إعادة صياغته بما يلائم احتياجات الطفل ومراحل نموه النفسى واللغوى والاجتماعى. ومن هنا تصبح المهمة الأساسية للقائمين على تثقيف الطفل فى الدول العربية هى البحث عن أساليب جديدة، وطرق أكثر ملاءمة لمخاطبة الطفل عبر الوسائط الثقافية المتاحة فى المجتمع.

ومما سبق يتضح أن المهام الأساسية التى يمكن أن تتبناها وسائط تثقيف الطفل فى المجتمع العربى لمواجهة تلك المشكلات السابقة هى : تنمية الإحساس والشعور بالانتماء للمجتمع الذى يعيش فيه الطفل من أجل الكشف عن هويته وثقافته، وتحقيق التواصل بين ثقافة المجتمع ككل، وثقافة الطفل كجزء من الثقافة الكلية للمجتمع العربى. بالإضافة إلى مساهمة تلك الوسائط فى تغيير حياة الطفل إلى الأفضل عن طريق المساهمة الفعالة فى تعليمه تبنى طرق جديدة ومهارات تشجعه على الإبداع والمساهمة فى رقى مجتمعه.

وبناءً على ذلك فإنه يمكن القول إنه بالنسبة لبعض الوظائف أو المهام التى يتعين على وسائط تثقيف الطفل القيام بها فى المجتمع العربى، مثل إقناع الجماهير بالتطور ، أو تبنى

طرق جديدة فى التفكير وفى السلوك، تصبح تلك المهام أكثر مرونة وتأثيرًا فى عالم الصغار؛ فقد أثبتت دراسات وبحوث ثقافية عديدة أن تبنى الطفل لوجهات النظر المقدمة له عن طريق ما يعرف بنماذج القدوة من خلال وسائل الإعلام المختلفة، كان له أكبر الأثر فى تبنى الطفل مفاهيم ثقافية، واجتماعية، وسلوكية جديدة(٩). حيث يصبح الأطفال القوة الأساسية المهيأة – بطبيعة تكوينهم البيولوجى والنفسى والاجتماعى – لتبنى أساليب سلوك جديدة.

ومن هنا فإن تلك النظرة السابقة تؤدى إلى أن يستخدم جمهور الأطفال فى الدول العربية وسائل الإعلام استخدامًا جديدًا؛ فبدلاً من اعتبار تلك الوسائل أدوات للترفيه والتسلية فى المقام الأول، فإن جمهور الأطفال يستخدمها كأداة لتلبية حاجاته فى التطوير والتعليم؛ ولذلك فإن المؤتمرات العديدة التى عقدتها هيئة "اليونسكو" فى هذا المجال خرجت بعدة توصيات، كان من أهمها ضرورة اهتمام الدول العربية بتطوير برامج الإذاعة والتليفزيون - خاصة فيما يختص باستخداماتها فى التعليم – سواء كان هذا التعليم للصغار أو للكبار، رسميًا أو غير رسمى، مع ربط ذلك بأدوات التعليم الأخرى فى المجتمع، مثل المدرسة، والجامعة.

ولذلك يرى بعض خبراء التعليم والاتصال الثقافى(١٠) أن على وسائل الإعلام أن تتحمل العبء الأكبر – ولعدة سنوات مقبلة – فى نشر التعليم فى الدول العربية، حيث لا يمكن لهذه الدول بإمكانياتها الحالية إعداد مدارس وجامعات كافية للأفراد من الصغار والكبار المتعطشين للتعليم والتدريب. كما يوصى هؤلاء الخبراء بضرورة أن توضع خطة واحدة للتعليم وثقافة الطفل؛ حيث إن هناك مزايا كثيرة تنتج عن جمع المسئولين عن التعليم

وثقافة الطفل فى كيان مركزى واحد. وينضم بعض خبراء الإعلام وثقافة الطفل العرب أيضًا إلى هذا الرأى(١١)، حيث يرون أن ذلك يساعد على الإسراع ببرامج التنمية الشاملة للطفل الراشد؛ حيث أصبح لزامًا على وسائط تثقيف الطفل أن تؤدى دور المعلم، والموجه، والمرشد، والمثقف، والمسلى بطريقة مباشرة أحيانًا، وبطرق غير مباشرة فى أحيان كثيرة؛ مما يحقق نظرية الاستخدامات المثلى لوسائل الإعلام، ونظرية المنفعة التى تعتبر من أساسيات دوافع التعرض لوسائل الإعلام والثقافة، ويتفق ذلك مع نظرية المسئولية الاجتماعية لوسائل الإعلام؛ مما يؤدى إلى تحقيق التأثيرات المطلوبة، وتقليل الآثار السلبية، أو غير المطلوبة لأية وسيلة إعلامية، وعلى سبيل المثال، فإنه رغم كل الانتقادات التى توجه لإعلانات التليفزيون بصفة خاصة، وتأثيراتها السلبية على الصغار، ورغم كل الدراسات والبحوث الإعلامية التى خرجت تؤكد تلك التاثيرات، فإنه لم يتم استغلال تلك الإعلانات فى إعداد برامج للأطفال، أو حتى فى تحويل بعض الحملات التعليمية والتثقيفية للأطفال، ولم تتكون أية جمعية تطوعية فى بلد من بلدان العالم العربى يكون مهمتها الأساسية حماية ثقافة الطفل العربى وهويته، وتضع آليات تنفيذ ذلك، بل إنه لا توجد أية جماعة للضغط من قبل وكالات تثقيف الطفل الأساسية مثل الأسرة، أو المدرسة، فالآباء والأمهات يميلون دائمًا إلى إلقاء اللوم على أجهزة الإعلام المختلفة، وتأثيراتها غير المرغوبة على أطفالهم، وأنماط سلوكهم، والمدرسة مثقلة بأعباء تعليمية منهجية تنمى ما يطلق عليه البعض "ثقافة التلقين"، ونسينا كمجتمع عربى أن ثقافة الطفل هى جزء لا يتجزأ من ثقافة المجتمع، وأن المكتبة مثلاً إحدى وسائط تثقيف الطفل المهمة، لكن يجب أن يفسح لها الكبار مكانًا فى حياة الصغار، كما أن المتحف أيضًا إحدى وسائط تثقيف الطفل، وربطه ليس فقط بتراثه، بل أيضًا نتيجة الإبداع والابتكار لديه، لكن أين هو الكبير الذى يشجع طفله على أن يجعل المكتبة دورًا أساسيًا فى حياته كما للتليفزيون، أو أفلام الفيديو وألعابه؟

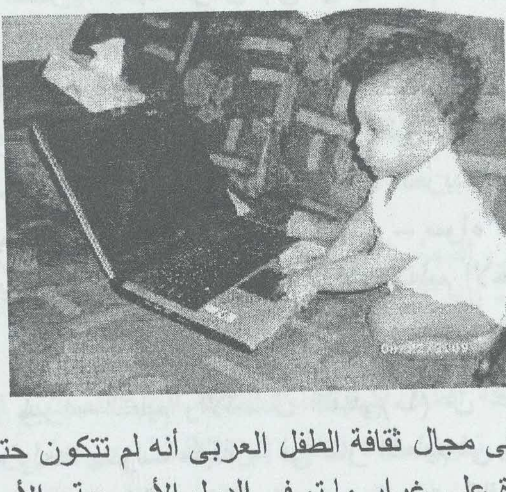

ومن اللافت للنظر فى مجال ثقافة الطفل العربى أنه لم تتكون حتى الآن أية جماعة من جماعات المشاهدة الناقدة على غرار ما تم فى الدول الأوروبية والأمريكية، على الرغم من تنامى الشكوى من الغزو الثقافى، وخطورته على هوية الطفل وقيمه، وحتى لم يتم إدخال تلك النظرة الناقدة فى المقررات المدرسية والتعليمية التى أصبحت جزءًا من المقررات

للطلاب فى كافة المراحل من الروضة إلى الجامعة، حيث يدرب الطفل على التفرقة بين ما هو واقعى، وما هو خيالى مقدم عبر وسائط الإعلام، كما يدرب على كيفية التحكم فى تعرضه للمواد الإعلامية المختلفة المقدمة له عبر شاشات التليفزيون والإنترنت، بالإضافة إلى تزويده بالطرق العلمية الأساسية لاختبار الغث من الثمين فى البرامج(١٢).

وفى النهاية فإن المستقبل مازال أمامنا كمسئولين ومهتمين بثقافة الطفل من أجل استخدام كافة التجارب المحلية والعالمية لخدمة وتحقيق أهداف التنشئة الثقافية للطفل العربى المسلم، حيث يعد هذا المجال من المجالات المستقبلية التى يمكن أن يستخدم فيها كافة وسائل الإعلام من أجل تنمية قدرات الطفل لخدمة أهداف المجتمع، ومن الجدير بالذكر هنا أن مشروع "نحو شخصية كرتونية للطفل العربى" الذى تبناه المجلس العربى للطفولة والتنمية، وكذلك مشروع "القراءة للجميع" الذى تم تحت رعاية جمعية الرعاية المتكاملة للأطفال فى مصر، يعدان من المشروعات الرائدة، كنقطة انطلاق نحو خدمة الأغراض الثقافية للطفل، وربطها بأهداف المجتمع العربى، وتراثه، وقيمه، وهويته. إلا أن الحاجة مازالت ضرورية ليست فقط لوضع استراتيجية لثقافة الطفل العربى؛ بل لوضع آليات تنفيذ هذه الاستراتيجية فى الفصول، والبيوت، والمزارع، والقرى النائية، وفى الأسرة نفسها، من أجل استخدام وسائل الإعلام، والتثقيف ليس من أجل الترفيه والتسلية، بل من أجل التأثير القوى على حياة ملايين الأطفال المتلهفين للتعليم ولاكتساب مهارات جديدة، ومعارف حديثة، وطرق غير تقليدية فى التفكير؛ حتى يمكن أن نطلق بحق على الطفل أنه صانع المستقبل بإذن الله تعالى.

المراجع

١ – راشد، نتيلة، مسيرة ثقافة الطفل العربى : دراسة توثيق حول جهود خبراء ثقافة الأطفال وتوصياتهم، المجلس العربى للطفولة والتنمية، الطبعة الأولى. ١٩٨٨. ص ٦.

٢ – معبد، إعتماد خلف، الإعلام الموجه للطفل فى الدول النامية : العقبات والمشكلات، المجلة الاجتماعية القومية، المركز القومى للبحوث الاجتماعية، القاهرة، يناير ١٩٩٤. ص ص ٧٥ ـ ١١٢.

٣ – ماكبرايد، شون، تقرير اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال، بحث مترجم – غير منشور – اليونسكو. ١٩٨٩.

٤ – لابل فرنسا، مجلة إعلامية، وزارة الشئون الخاجية الفرنسية، العدد ٣٨، يناير ٢٠٠٠، ص ص ٢٤ ـ ٢٦.

٥ – معبد، إعتماد خلف، مرجع سابق، ص ٨٩.

٦ – Budd, W., Richard, eds, Beyond media : new approaches to mass communication, transaction publishers, New Brunsaick, U.S.A. 1999. p . p . 138 – 158.

٧ – معبد، إعتماد خلف، مرجع سابق، ص ٨٤.

٨ – بلويسكى، آن، تقييم كتب الأطفال فى الدول النامية، بحث منشور مقدم فى ورشة عمل بحوث وأدب الأطفال، مركز توثيق وبحوث أدب الأطفال، هيئة اليونيسيف، القاهرة. ١٩٩٣. ص ٢ – ٣.

٩ – معبد، إعتماد خلف، الطفل المصرى وصورة البطل، دار مايا للنشر، القاهرة. ١٩٩٣.

١٠ – لمزيد من التفاصيل فى هذا الموضوع أنظر :

- Agrawal, Benod c., SITE social evolution : results, experiences and implications, India, space applications center, 1988.

- Desai, m. v., communication policies in India, Paris, Unesco, 1989.

- Schramm, W., Big media, little media, Beverly Hills : sage, 1988.

١١ – راشد، نتيلة، مرجع سابق.

١٢ - Reports and papers on mass communication, new technologies in education (105), UNESCO, France, Paris, 1991.